ترنيمة بغداد
هي مدينة تخومها الافق كله

شاكر الانباري

انها قلب هذا العالم، مدينة اسطورة وعنوان كتاب رمل آخر، كلماته قذائف وكتب ودم، ماء وشاشات وطائرات ونساء، شاغلة الناس، البنت البهية والعجوز الشمطاء، الداعر ابن هانئ والمتصوف الزاهد ابن تيمية، والزنديق، متسكع الرصافة، ابن الراوندي. منذ قرون، وهي تترنم مع شاعرها المتنبي: أنام ملء جفوني عن شواردها/ ويسهر الخلق جراها ويختصم. هي بغداد كنا ننام عادة، على سطح فندقها، فندق الزعماء، قرب تمثال الرصافي، ليس بعيداً عن متصوفها الاكبر عبد القادر الجيلي، نستيقظ، صباحاً، ونحدق في افقها، فينالنا العجب: انها مدينة لا تحد، تخومها هي الافق كله، ام المدن ودليلة الآفاق ومسبر الحضارات، مصهر ثقافات ولغات وأديان، انبيق اعراق وامزجة وشعوب.

ليس هناك حدود لبغداد، فهي تندغم بالسماء، وتسيل في رضاب دجلة، شرقاً وغرباً،سطوح المنازل عليها كلل لصد الناموس ودوالي عنب او ورود وبيوت حمام، قوارب صيد وقباب بيض او زرق تركوازية، نخيل عجيب كأنه اصابع تحك السماء، وأبنية شاهقة واشجار كينا، لا تظهر المدافع في الارض، ولا ترتفع سوى طائرات ورقية ملونة وأسراب حمام زاجل او مدجن او بري. بغداد مبنية بتمر/ فلس وكل حلاوي، والحلاوي من افخر انواع التمور في العراق، بغداد مدينة من تمر، آلهة هشة يتغذى بها ابناؤها، مثلما اغتذى الجاهلي بربه، فأين تمشى هارون الرشيد ذات مرة؟ اين صلب الحلاج؟ كيف دخلت خيول المغول، ومن أي جهة منها؟ حمورابي الذي أصدر قوانينه، هل جال يوماً على ضفاف دجلة، ام انه مر بعربته الملكية نحو الجنوب، مرور اله عابر؟ كيف قضت المس بيل، صانعة الملوك، ظهيراتها الحارات في نهارات بغداد الثقيلة؟ تحت أي نخلة تفيأت؟ واي بيت شهد حرير جسدها الانثوي. وفي أي بقعة اعدم القائد الشيوعي يوسف سلمان فهد عام ١٩٤٩، بعد ان كان يحلم بوطن حر وشعب سعيد؟ وبعد ان هتف: الشيوعية اقوى من الموت واعلى من اعواد المشانق؟ من هو العريف حسن سريع، الذي قاد انقلاباً ضد دولة كاملة، متيمماً بجيفارا بوليفي لم يعد موجوداً؟ هكذا هي الاسئلة، في مدينة اسطورية، لن يعرفها المرء حتى لو عاش فيها مليون سنة.

خلف كل حجارة قصة، ووراء كل باب هارون الرشيد، وسياف اسمه مسعود، وليلة من ليالي شهرزاد. هنا أنانا وهناك عشتار، وثمة حمورابي، وعلى مبعدة، الوالي مدحت باشا. نوري السعيد في قصر الرحاب والمهداوي يقف يهتف في المحكمة باسم شعب العراق. سمك مسكوف ولبلبي وشرطة سريون وشعر، وجنود متطوعون، جاءوا بحثاً عن وجبات مجانية وملابس خاكية انيقة جاءوا من عمق الهور والجبال والصحارى، يحملون لهجاتهم مثل وشم سحري. ظلت بغداد مثل حلم، منذ ان رأيتها اول مرة، وكان عمري خمسة عشر عاماً، مررنا بها في سفرة مدرسية الى بابل، وظل الشيء الوحيد من تلك الزيارة العابرة، الجسر المعلق، الطائر في الهواء، على خلفية من سماء داكنة الزرقة، وحول نخيل سامق، اسمق من نخيل قريتنا، اضافة الى طابوق بابل واسدها الواقف قرب نهر الفرات.

نخيل دجلة، جسر دجلة ، سماء دجلة، اما انا فقد جئتها من نهر آخر هو الفرات، من سماء اخرى هي سماء الفرات، ونخيل مشابه هو نخيل الفرات. تلك اول مرة ارى فيها جسراً بهذه الضخامة. مدينتي، الرمادي، التي تبعد مئة كيلو متر عن بغداد، تخلو من جسور معلقة، بل فيها جسران فقط. هما سدود خزن وتصريف فقط. عرفت فيما بعد حين تكررت زياراتي الى بغداد ان هذه المدينة المنفرشة على ضفتي دجلة فيها جسور كثيرة، لكن مرأى الجسر المعلق، في ذلك الصباح البابلي، ظل هو الاكثر تركيزاً في خيالي. بعد عشرات السنين من مغادرتي العراق لم استطع، ولا مرة واحدة، امساك ولو وجه واحد لبغداد، انها مثلما كتب عنها الروائي الاردني غالب هلسا، مدينة بثلاثة وجوه، وربما بمليون، ففي كل دهليز وجه، وفي كل حانة جزء من روح بغداد، صورة بغداد لا تمسك .ثلاثة وجوه لبغداد، وهي في الحقيقية هرة اسطورية ذات ارواح سبع، تنين صيني لا يموت، عنقاء تهب من رمادها في كل محرقة، منذ تلك السفرة، وهي غائمة، ضبابية، مليئة بالسحر والتوق والحنين تأتي عادة مزججة بالنساء، ومتلألئة بالنوارس الطائرة فوق جدارية فائق حسن، ومرقد الامام الكاظم، واشجار المنصور، كتب وجنود واسواق صاخبة للنحاس.لصوص وشطار وعيارون.

كتاب وورَاقون وصيرفيون ونحاسون ومنجمون ومتصوفة وشيوخ عشائر، قطارات وصورللزعيم عبد الكريم قاسم، ومباريات عدنان القيسي، الذي شلَ عقول البغداديين طوال سنة كاملة. الجاحظ وابو حيان والمأمون وطغرل بيك وماني وهادي العلوي والجنيد البغدادي، الذي قال مرة: والله لولا الواسواس لما خالطت الناس، وانها بؤرة الانقلابات التي لا تمر سنة الا ويعلن الراديو عن قيام واحد منها، بعد البيان رقم واحد، الذي يطيح بالزمرة الفاسدة باسم الجيش والشعب. جاء عمي من بغداد ذات يوم لابساً ملابسه العسكرية، يقود سيارة جيب صغيرة ويتمنطق برشاشة بور سعيد، جاء على غير العادة، واخبرنا انهم قضوا على الحرس القومي. والحرس القومي ميليشيا لحزب البعث تأسس أثناء الانقلاب الذي حصل في ٨ شباط ١٩٦٣. ولم يمض سوى يومين حتى جلبوا الى القرية المجاورة ثلاث جثث من الحرس القومي، ماتوا في معسكر الوشاش، وسط بغداد، اتخيل اليوم كم من الحرس الخاص، والفدائيين، والجيش، والمليشيات، سيجلبون الى قراهم او ازقتهم او مدنهم، وهم مضرجون بدمائهم، الدماء التي سترفع من خزين بغداد الضاري، الاسطوري، انجات وربما امتاراً وتضيف حكايات اخرى الى حكاياتها الحزينة المضمخة ببخور الموت؟ يقول مظفر النواب ما معناه، لم ار بلاداً رويت بالدم كما رأيت بلادي، ويقول الرواة ان دجلة صار لونه احمر، لكثرة من قتلهم المغول ذلك اليوم.

أقول أنا، أننا اليوم بحاجة ماسة الى مدينة ثانية، كوسموبوليتية، منفتحة على العالم، فبغداد طوال عمرها، كانت هكذا حنابلة، وكفرة، ويزيديون، وصابئة، ويهود، ومعتزلة، وعلويون، وعباسيون، وعثمانيون، ومسيحيون، ونساطرة، وانجليز، وأرمن، وفرس، وترك، ومغول، وأفغان، واكراد، عرب، وسنة، وشيعة، وملاحدة، وشيوعيون.بغداد دائماً هكذا، سواء كنت بريطانياً او امريكياً او عربياً او عراقياً أو كردياً او تركمانياً، ينبغي ان تؤمن بهذه الحقيقة، والا فمصيرك سيكون مصير كل جلاديها، وخانقي حرياتها، ولا يمكنك وضعها تحت اطار او حزب او آيديولوجيا، انها مهيأة لتكون قبلة لشرق جديد، يتخلى عن اوهامه صورة بغداد لا تمسك، اهتزت عشرات المرات، اولها حين دخلت الجامعة وصرت زبوناً دائماً لبغداد صرت ابنها وعشيقها. صرت فرداً من ملايين تتوغل في شرايينها وتسبح عبر تجاويفها باحثة عن حب، عن شهرة، عن مال، عن امل، عن مستقبل بعيد، ادخل بغداد عن طريق علاوي الحلة، مروراً بأبي غريب. وطريقي يبتدئ من الرمادي ثم الحبانية، وهي اكبر قاعدة جوية في العراق، بناها الانجليز منذ الحرب العالمية الاولى، واشهر ما فيها اشجار الكينا الدائمة الخضرة، والجالية الهندية التي جلبها المستعمرون معهم لادارة الخدمات في القاعدة، ثم الفلوجة ومن بعدها خان ضاري. كلما جئت بغداد تذكرت قصة خان ضاري، وهو بناء عتيق يعود الى ايام الاحتلال الانكليزي للعراق. في هذا المكان كان الحاكم الانكليزي لجمن باللهجة العراقية الفلوكلورية، يدير شؤون العراق، وحين شتم الشيخ ضاري بكلمات قاسية اثناء اجتماع لهما، اذ كان افراد العشائر يغيرون على القوات الانكليزية الغازية، ما كان من الاخير الا ان تناول مسدسه وافرغه في رأس الجنرال، جنرال امرد، لا يمكن، ولا ينبغي ان يخاطب شيخاً من عشائر شمَر بهذه الطريقة!! هذا ما لم يدركه ضباط الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، ومنذ تلك الحادثة عرفت بريطانيا العظمى انها لا يمكن ان تدير العراق بقوة السلاح، فجلبت الملك فيصل ونصبت له العرش في قصر الرحاب، في صالحية بغداد، ومن ثم دارت دورة الحكم في عراق، ينبو كل مرة على نبوءات العرافات.

الامريكان لا يعرفون العراق جيداً، واظن ان هذه الحقبة ستغير وجهة نظرهم عن الشعوب الى الابد، لقد جاءوا الى بابل الاسطورية التي قام عليها التاريخ التوراتي كله جاءوا الى منبع الاديان(أور)حيث تسلل ابراهيم منها نحو الغرب باحثاً عن الهه، تاقوا طويلاً الى مبلبلة الألسن، ومنبع كل لغة، ومبتدأ الشرائع، قبل ابراهام لينكولن بخمسين قرناً وقرناً. ليس من الغريب اذن، ان يمشي العراقي في الشارع كما لو انه حمورابي، ثقيل الخطى، متأملاً مثل فيل حكيم، وبابتسامة ناعمة، لا تكاد تلمح، في البصرة وكربلاء وبغداد والنجف، تمشي جنبه المدرعة الامريكية هادرة مجلجلة، وهو ينظر الى الجندي الامريكي كما لو انه علبة كوكاكولا، متحركة والفرق بيَن، بين هذا وذاك. تلك مفارقة اخرى من مفارقات هذه الحرب الضرورة، الكارثة، في الآن ذاته. مبلبلة الألسن، تمتص الجميع ثانية، بمن فيهم أنا. اليوم اصبحت بغداد أليفة لي. لم تعد اساطير وخيالات تظهر في صباحات جزيرة ام الخنازير، وكورنيش الاعظمية، وشاطئ أبي نؤاس المزركش بمواقد شي القطان والشبوط والزبيدي. عليّ ان اعترف، انني وحتى لحظة خروجي الى كردستان العراق، من ثم الى طهران ايران، بأوراق مزورة، لم استطع فهم بغداد جيداً، لا ادّعي ذلك على الاطلاق. ظلت كثير من اسماء اماكنها ترن في الذهن فقط، ترسم الايحاءات دون ان تتجسد واقعاً: الدورة، السيدية، الشعلة، الثورة، قناة الجيش، الزعفرانية، الشماعية، سلمان باك، أماكن لم تطأها قدماي، رغم أنني عشت اكثر من اثنتي عشرة سنة متقطعة في بغداد، الاعظمية، الميدان، الكاظمية، الكرخ، الحيدرخانة، محلة الذهب، السعدون، اماكن اصبحت جزءاً مهماً من ذاكرتي، لهذا السبب او ذاك.

في ساحة الامة نصب جواد سليم، شخوصه ترقب ما يجري في مجمع الرئاسة ومطار بغداد ومبنى الاذاعة والتلفزيون. حي العامل يقطنه صديقي محمد العاني، انه مهندس مثلي، الكاظمية طالما ذهبت اتفرج على الايرانيات الجميلات في اسواقها ومطاعمها وحدائقها: خيلي قشنك خانم. فارسي مدني آغا؟ قليل قليل خانم: الايرانيات وهن يجلن في الاسواق، يتسوقن الذهب والآيات القرآنية لخطاطي بغداد. محلة الذهب، كنا نزورها لقضاء وطر مع نسائها. الاعظمية، محل السكن الجامعي لأصدقائنا الفلسطينيين، وقد صاروا شعلة أخبار لما يجري لرفاقنا الاممين في الجانب الاخر من العالم. زمن مضى: الجبهة الشعبية الديموقراطية، النضال الشعبي، حركة فتح، جبهة التحرير العربية التي طالما اعتبرنا افرادها جواسيس للحزب والمخابرات، فلم نثق بهم. شارع الرشيد، شارع الضجر والسكر والتسكع وشراء كتب سارتر والبيركامو وشرب الشاي في مقهى أم كلثوم. الحيدر خانة، ازقة ضيقة ومنعطفات ومشربيات. دور فوق دور. ونساء يخرجن من العتمات بعباءات سود، وباعة خضار، ومروجو بضاعة ناعمة للنساء، وسحنات لا يمكن الحدس بما يمور خلفها.

كان لي ابن عم يعيش في تلك السنة، بدايات السبعينيات، مستأجراً غرفة مع امرأة أرملة، وكان يدرس في الجامعة المستنصرية في اطراف بغداد. دأب على أن يتعشى الخبز مع الفجل، ويفطر بالخبز والشاي، ويتغدى الرز مع الفاصولياء، دون لحم طبعاً، في المطعم الصغير المجاور للغرفة، وذلك توفيراً للنقود. من الجامعة إلى الغرفة، ومن الغرفة إلى مقهى البرلمان، أو من الغرفة إلى قريتنا الحامضية التي تستريح على الفرات، بعد عشرة كيلومترات من سد الرمادي.... وبغداد تفاصيلها وقشورها وذراتها ونغماتها، ومع ابن عمي ذاك، خبرت الحيدرخانة وأهلها وأزقتها وروائح اطعمتها وألوان ملابسها المعلقة على السطوح، ونلت من بغداد تفاصيلها وشيئاً من قشورها وذراتها خبرت بغداديات كثيرات: وايرانيات كثيرات خيلي قشنق خانم، من فارسي مدني خانم. وحين كنت أقرأ روايات فؤاد التكرلي: الرجع البعيد وخاتم الرمل والمسرات والأوجاع، يعود بي الفن واللغة، إلى تلك الايام التي كانت بغداد فيها تحلم بغد أفضل، بوطن حر وشعب سعيد، باشتراكية توصلها إلى مصاف العواصم المتطورة. كانت بمصير غير هذا المصير - المتاهة، المفتوح على ضلالات التاريخ، على الدم والاحتلال والفوضى والقفز في الفضاء.

في الثمانينيات ما ان سقطت أول قذيفة لطائرة إيرانية وقت الحرب الكارثة، حتى احس الجميع أن هذا الغول الجاثم على الصدور، غول بغداد بشاربيه الرجوليين وطقمه الأنيق وسيجاره العرابي، المافيوي لماريو بوزو، وعينيه القاسيتين مثل جلد ضب في صحراء، سيقود البلد إلى الرماد. قادها إلى الاحتلال بلحظة مسروقة من وعي الشعب العراقي بجدارة. من كان يصدق هذا قبل عشرين سنة؟ نعم قادها ذلك الديناصور الآيديولوجي، بميليشياته ومخابراته وجلاديه وأبواق أدبه واعلامه ومقاصله، قاد بغداد من حلم الاشتراكية إلى الاحتلال، خلال اقل من ثلاثين سنة بعد أن ساق حادلة تاريخية اسمها الفاشية والبداوة، ساوت تحت ثقلها: الاسفلت والبشر والكتب والاطعمة والبلدات والأفكار والآبار والوجوه، وكل شيء. ساوتها بحزامه الحامل مسدساً عيار ١٢ ملم، الذي لا يقتل به سوى القادة الكبار. مقاهينا التي كنا نقضي فيها اوقات فراغنا ظلت كما هي: حسن عجمي والبرلمان، ومقهى أم كلثوم التي تعود لي بعد سنين على شكل دهليز طويل معبأ بالدخان، وآهات كوكب الشرق تغني منذ الفجر إلى ساعة متأخرة من الليل عن: هجر الحبيب، والحب كله، وأنساك والف ليلة وليلة، لكن هذه المرة تحت غلالات رعب لا يمسك، وفي ثنايا عيون جاهزة للقتل.

بعد عشر سنوات او اقل، غنت فيروز ايضاً: بغداد والشعراء والصور / ذهب الزمان وضوعه العطر، ولم تدع تلك الاغنية وقتها سوى إذاعة بغداد. اليوم كلما قلبت إذاعة عربية اسمع الاغنية تترنح في الهواء، وأفكر كم نحن العرب مراوغون وذوو وجوه متعددة ومنافقون؟ كم نحن براغماتيون ودبل موراليون، ونكيل، لا بمكيالين وبس، إنما بعشرات المكاييل. ثم: بغداد يا قلعة الأسود / يا كعبة المجد والخلود. تغنوا ببغداد حين بدأ الاجنبي يفترسها، من ابو غريب إلى جسر ديالى، ومن الرضوانية إلى ساحة التحرير. الذبح ذبح على اية حال. أما حين كانت تذبح على ايدي ابنائها العاقلين، جنوده الميامين، مرتدي لباسهم الأسود، أو أطقمهم النازة بالرؤية الواحدة، المحتكمة إلى المسدس، فلم ينبس أحد بشفة. وكانوا يقتسمون جعالاتها بحبور، ويتغنون بقمر بغداد المشرف على طهران، ويشعلون الشموع بين هوادج المربد، قرب تمثال السياب. لن يقول العراقيون كما قال عبد الكريم قاسم قبل اربعين سنة: عفا الله عما سلف. كلا فلكل خطأ ثمن، ولكل جرم عقاب، والجراح تظل جراحاً، ولن يسمو فوقها أحد حتى لو كان ذلك باسم وطنية زائفة. وهذا ايضاً رغم أن الموت هو الموت، والظلم ظلم حتى لو جاء من اخيك الأكبر. تلك مفارقات اخلاقنا نحن العرب الذين نكتشف المجرات والسرطان وعالم البحار وجنون البقر والاستنساخ وقوى الانسان الخفية، كذلك شلالات نياغارا المشمورة على أطراف سهول الأرجنتين، نكتشفها كل يوم لكن عبر لغة الجاحظ، والفية ابن مالك وفي الحيدرخانة تعلمت شرب البيرة اول مرة. أنا وابن عمي ننتمي إلى بيئة متخلفة وبدوية، وفي ليلة من الليالي الصاخبة، قررنا التمرد على التقاليد وكسر حالة الخوف، مع الكحول والنقل، مع بغداد عميقة الغور، شاسعة الظلام، بعيدة مهوى القرط، أم الدنيا، وقلب عالم جديد. ذهبنا إلى محل صغير قرب تمثال الرصافي، وبخجل وخوف، ابتعنا قنينة واحدة من البيرة الشهرزاد، مع كثير من المقبلات. حاولنا الحصول على قينة من محلة الذهب لكننا لم نوفق، مضينا إلى غرفته بحذر وأغلقنا الباب، وفرشنا المائدة وجهزنا الأرض والأغطية، ثم قعدنا إلى الشراب.

سكرنا بعد ساعتين، أو هكذا تخيلنا، وكانت ليلة من خيال، وثمة قنينة بيرة عيار ليتر، وستة بالمئة من الكحول، ترقد قرب الباب. وكان الزمن زمن توهمات وتلمس مستقبل وطريق. فبغداد في عنفوانها. وقد قادتني تلك القنينة المسكينة، من دون قينة، بعد أقل من شهرين، إلى حانات بغداد، رئاتها التي تتنفس الشعر والسياسة والدعارة والإشاعات والدسائس. قادتنا معاً، كتاباً وشعراء وفلاسفة ومجانين وروائيين وكتاب قصة وكتاب تقارير للحزب الصاعد توا، إلى غيهب الجحيم.

الجميع يروم اقتناص روح بغداد، لكي يحولها إلى قطعة من الفن: محمود العبطة يدون فولكلورها وأغانيها وأساطير، دراويشها وتكياتها وخاناتها واسطبلاتها. جنان جاسم حلاوي يتقرى مكانها لنسج قصة تسير على هدي محمد خضير القابع في البصرة، ويبحث نهاره وليله عن امرأة تشفي غليل جوعه البصري، المحشو بتوابل زنوج أفريقيا والهند. موسى كريدي، جمعة اللامي، فوزي كريم الذي كان يردد دائماً: تبولت بين الرصافة والجسر، وشاكر لعيبي الذي سيردد للجواهري، بعد عشرين سنة، في حانة من حانات سويسرة: حييت سفحك عن بعد فحييني / يا دجلة الخير يا أم البساتين. حييت سفحك ظمآناً ألوذ به / لوذ الحمائم بين الماء والطين. سعدي يوسف، الحالم بشيوعية سماوية، جان دمو، رعد عبد القادر، كاظم جهاد، هاشم شفيق وكريم كاصد، فؤاد التكرلي، وغيرهم، ممن كانت تسحرهم مآذن المدينة من فوق فندق الزعماء، ومن مقهى المربعة، ومن شارع النهر النائح برائحة السمك النهري. تسحرهم الأقواس في مكتبة المتنبي، والقباب التي تقف عليها اللقالق، برجل واحدة. تسحرهم المنمنمات في القصور العثمانية لآخر ولاة بني عثمان في بغداد، وساعة القشلة المطلة على وزارة الدفاع. باصات النقل الداخلي الحمراء بطابقين، وباعة القلوب والباجة والباقلاء. تسحرهم آهات المقام البغدادي مع ناظم الغزالي وشعوبي والقبانجي وملك الطرب يوسف عمر، الذي طالما رددنا معه أغنيته البورنو: مات اللامبجي داوود وعلومه / قومو اليوم دا انعزي فطومه. واللمبجي كما عرف عنه، واحد من قوادي بغداد المشهورين في العهد الملكي. الغريب إنني وحين تركت البلد، بعد عشرات السنين، واستقررت في أكثر من مدينة أوروبية، بقيت ورغبت وتقت إلى أن أسمع تلك الأغنية، كان يرددها العراقيون الفضائحيون كلما سكروا، وعنت لهم بغداد يوسف عمر، ومحلة الذهب، ودهاليز الحيدر خانة. لم التق بعراقي يحب يوسف عمر أكثر من الأكراد الفيلية، لقد كان معبودهم وسمير سكرهم، وصوت آهاتهم، في أيام تهجيرهم الأسود إلى إيران، ومن ثم في غربتهم، في بلاد الله الواسعة. قال لي صديقي الكردي الفيلي فاضل، وكنا نجلس في حانة من حانات كوبنهاغن أنه حين يسمع يوسف عمر يرى من بعيد حي الأكراد وشارع البتاوين، ويسكر في جمانة، ويأكل السمك المسقوف تحت سقف كوخ على شاطئ دجلة، في ليلة مقمرة، لينتهي في حضن قحبة من قحاب الميدان، في شقة تقع في قناة الجيش. لم لا، هجروا صديقي فاضل من العراق، قبل خمس وعشرين سنة من أول صاروخ أمريكي يسقط على وزارة الإعلام، التي قاد حربها الجنرال محمد سعيد الصحاف، مدير شؤون المذيعات الجميلات ذات مرة في الإذاعة والتلفزيون العراقي، وصاحب صفقات اللحم الأبيض مع القيادة العليا. وكان صديقي فاضل يذكره جيداً قبل أن تندلع الحرب مع إيران في العام ١٩٨٠. بغداد دهاليز وقصص وحكايات. أما الشيء الذي ركز في ذاكرتي وافتقدته مثلما يفتقد الرجل أما ميتة، ولم أجده في أي مدينة أخرى من المدن التي رأيتها في حياتي الطويلة، وفي مختلف القارات... نخيلها.

نخيلها المروحي، المدوم في هواء صيفي، أو في غيوم شتائية. نخيلها السابح في سمائها، السابح في الغيوم، الواقف مثل مردة ألف ليلة وليلة، بين بيوتها وجسورها وازقتها، على مقابرها، وفي عرصاتها، وعند حقولها. نخيلها حول مراقدها وحاناتها، جوامعها ومشافيها، بين اثلها وحورها وصفصافها. بغداد نخلة عملاقة تذري زرقتها على العالم. لم أجد مدينة غاصة بالنخيل كما بغداد، يمتلئ بصفرته صيفاً، ويزخر بالزرقة على سماء مبقعة بالغيوم شتاء. لا أتصور بغداد يوماً دون نخيلها الذي صار بصمة فارقة لجسدها الشامخ. هل يستطيع أحد أن يغتال ذاكرة؟ هل تستطيع، مهما امتلكت من متفجرات أن تقتلع منجماً حضارياً مثل منجمها؟ كثير من الأحيان نقف على جسر الجمهورية أو جسر الأحرار عند الغروب، بعد جلسة خمرية، وفي أبو نؤاس أو شارع الرشيد أو الميدان، ونحدق في آفاق دجلة، ثم ننسل إلى سحرها وطلسماتها ودلالاتها وعلاماتها. مشهد تيجان النخيل، عند الغروب، يجعل منها المدينة الأكثر مسالمة في العالم، نخيل وحمام ونوارس وقوارب ومراوح دجلة المائية وسيوف الأصيل، وهي تلمح في بيداء نهرها والسكارى، يحدقون من فوق جسر الشهداء: بغداد مبنية بتمر / فلس وكل حلاوي. نزيهة بالت على الجسر / وازحلق المهداوي. وتلك أهزوجة فولكلورية وضعت أيام رئيس محكمة الشعب عباس المهداوي، وكانت نزيهة الدليمي ممثلة عن الحزب الشيوعي، وزيرة في حكومة عبد الكريم قاسم. بغداد مبنية بالتمر، تخيل أن مدينة يمكن للمرء أكلها كما أكلت العرب آلهتها قبل آلاف السنين. تخيل بيوتاً من تمر، ونخيلاً من تمر، ودبابات من تمر، وجنوداً من تمر، وغزاة من تمر، وموتا من تمر لذيذ، ولا يحتاج البغداديون اليوم إلا للأكل.

بغداد مسالمة، بغداد نورس أبيض يحط على جسر الصرافية. بغداد نجمة وما حدا يطفيها. بغداد الدم الذي رأيته يسيل في المستشفيات، في الأزقة، على حافات الأرصفة، وسط بيوت من طين، فوق فراشات حقول سلمان باك، وبغداد مجرة عشتار التي ستضيء لأمواتنا العرب مجاهيل العالم السفلي!!! ولم يكن الواقع كذلك.

بغداد عمرها لم تسالم. وهي خمبابو، حارس غابة الأرز في جبال لبنان، هي كأنها قرأت قصيدة كليب، إذ كتبها بدمه على صخرة وادي الضياع: لا تسالم، ولا تصافح، وصيته إلى أخيه الزير سالم. كانت بغداد تصارع روحها، تنهش نفسها، تعض على أبعاضها. ففي حارات الشعلة والثورة والحيدرخانة والسنك وعلاوي الحلة، في حي العامل والسيدية والمنصور وغيرها من أحياء هذا الجسد العملاق، كانت ثمة صراعات خفية تدور، صراعات بين بعثيين وشيوعيين، وعاء الثقافات والقوميات، البارومتر الطبي لهذه الخارطة المزججة مثل سجادة كشميرية. هناك الأكراد بالملايين، والشيعة الذين نزحوا من سوق الشيوخ والناصرية والعمارة وأطراف الحلة، والسنة بالملايين، ثم البعثيون والشيوعيون وحزباً الدعوة والأخوان المسلمين. شاعت تسميات في بغداد لم تكن مألوفة: سينما الشعب، احذية العروبة، شارع البعث، حديقة القائد، وهكذا، في ذات الوقت الذي بدأ الأصدقاء يختفون في سجون وزنازين ومسابح وبرك ومغاطس من السيانيد. وبغداد لم تكن مسالمة على الإطلاق. بغداد!! إنها مرجل يغلي، أما ما هي الطبخة فلا أحد يعرف بالضبط.

لقد دخلت بغداد ذات يوم في افقها السديمي المعتم. بغداد لم تعد تحاور أبناءها، صارت قنبلة معبأة بآلاف الأطنان من المتفجرات. بغداد صارت مستودعاً لجثث وقتلى ومعذبين ورفاق ومخطوفين ونازحين، صارت مقبرة لنظريات وأحزاب ودسائس وصفقات وأوهام كبيرة. بغداد أصبحت عدوانية أكثر مما يجب. وكنا قد تشردنا في بقاع الأرض، مئات، ثم آلاف، ثم مئات آلاف، ثم ملايين، وظلت قلوبنا على بغداد. وطريقنا إلى بغداد: اليوم بتنا هنا والصبح في البساتين. ما زلنا نغني حين نسكر حتى حين بدأت بغداد - النظام تتهاوى، لينفتح أفق آخر بعد ظلمة، نغني مع يوسف عمر: مات اللامبجي داوود وعلومه، والمعروف باللهجة العراقية أن اللامبجي هو الذي يضيء اللمبات في الليل ليجعل ليل بغداد نيراً، فهل مات داوود حقاً؟ أم إن بغداد لم تعد بحاجة إلى من يضيء لها الليل؟ أم إن بغداد تخبئ لنا سراً كما عودتنا دائماً؟

قصة قصيرة

لعبة الدومينو...

نزار عباس

كنا مجموعة من المتقاعدين، اتخذنا من مقهى النهر، مكاناً للقاء كل صباح، نقرأ الصحف، ونحتسي الشاي، ونثرثر في أي موضوع يخطر على البال، وعندما يدركنا التعب، نسرح نظرنا على صفحة الماء الذي يمتد أمامنا بلا نهاية. وغالباً ما تقدم لنا صحف الصباح مادة لما نخوض فيه من أحاديث وذكريات.. هكذا قرأ السيد عبد الجواد، وهو معلم متقاعد، خبر (انتشال جثة غريق)، فرفع عويناته، ووجه الحديث إلينا قائلاً: - إن اكتشاف جثة غريق قد لا يثير اهتمامكم، فأنتم تعتقدون ان الغريق سقط في النهر بفعل دفع من الخارج، ولم يكن يعرف السباحة، أو أنه انتحر بسبب خسارة في تجارة، أو فشل في قصة حب، أو إن إهانة كبيرة لحقت به.. الخ، ولكن دعوني أحدثكم عن شخص آثر الموت غرقاً بسبب رهان سخيف.

اتجهت أنظارنا إلى السيد عبد الجواد الذي يحمل إلينا كل يوم تعليقاً طريفاً أو حكاية ممتعة، ولما أحس بأننا بانتظار حديثه، استطرد يقول: (أجل، أيها الأصدقاء، رهان سخيف.. وسأروي لكم الحكاية، كي تعرفوا أن الإنسان كائن عجيب حقاً، وأن العقل هو آخر من يتحكم بأعماله!، فقد تسيطر على الإنسان فكرة عابرة، أو حتى لعبة صغيرة تافهة تتحكم في مصيره، وتقوده إلى النهاية، ويبدو أمامها مجرد ريشة في مهب الريح، لا حول لها ولا قوة...).

تنقلت نظرات السيد عبد الجواد على وجوهنا جميعاً، وبعد أن رشف ما تبقى من قدح الشاي، أشعل سيجارة، ثم راح يسرد لنا حكاية ذلك الشخص ورهانه العجيب.

قال: (في بداية الخمسينيات ألتقيت بالسيد وحيد، كنا نرتاد نفس هذا المقهى، وكان يؤمه، كما الآن، شخص ما، وقد عرفني به صديقي أحمد، رحمه الله، قائلاً: يسرني أن أعرفك بالسيد وحيد.. أحسن من يلعب - الدومينو - في هذا البلد! طبعاً، أخذت الأمور على سبيل النكتة والمبالغة، وبعد مرور أشهر أدركت من خلال لعبي معه ومراقبتي إياه حين يلعب مع الآخرين، إن صديقي لم يكن مبالغاً في وصفه، وأن السيد وحيد يستحق أن يحمل لقب أحسن لاعب في مقهى النهر على الأقل! كان السيد وحيد ينصرف إلى اللعبة بكل حواسه، لاهياً عن كل ما حوله، يظل محدقاً في قطع (الدومينو) أو في وجه منافسه، واصابعه وتعابير وجهه، كأنه يريد أن يعرف بدقة ماذا يحمل خصمه وأية قطعة سيرمي.

وكان حين يصح توقعه، ويرمي خصمه بالقطعة التي حدسها، يبتسم السيد وحيد بهدوء، ويشع من عينيه بريق انتصار غريب.

أما صديقي أحمد - رحمه الله - فكان لا يمل من مراقبة صاحبنا أثناء اللعب، وكان أحياناً يحدثني عنه.. قال لي مرة: (هل تعرف أن السيد وحيد كان أحسن لاعب بوكر وشطرنج أيضاً، وقد حاول أن يعلمني ذلك، عندما كنت معلماً في قرية نائية. أما بالنسبة إلى لعبة الدومينو بالذات، فقد بدأ يتقنها بعد أن خسر مرة أمام أحد القرويين.. آنذاك، لم يترك قروياً ولا موظفاً إلا ولعب معه، وكان يربح كثيراً، ويخسر مرات قليلة. واستمرت تلك الهواية، أو قل الاحتراف، حتى بعد أن صدر الأمر بنقلنا إلى بغداد، حيث رمانا الضجر، والشعور بالوحدة، والهروب من البيت، إلى هذا المقهى، حيث لا نزال نجلس إلى ما شاء الله).

واستمر عبد الجواد يروي لنا الحكاية، فقال: ويبدو ان سمعة السيد وحيد قد وصلت إلى المقاهي المجاورة، فهذه المنطقة كانت مليئة بالمقاهي والدكاكين، ولم تكن العمارات قد أطبقت عليها من كل جانب.

وذات يوم دخل المقهى، شاب وسيم، انيق، تقدم نحونا ضاحكاً وقال: أقدم لكم نفسي، انا نائل أريد أن العب - الدومينو - مع السيد وحيد -!

قلت لنفسي: حسناً، هذا شخص آخر يسقط في اللعبة!

ابتسمت له وقلت وأنا أدعوه للجلوس: أنت تتحداه إذن!

قال: ولم لا!

التفت السيد وحيد إليه ساخراً، وقال: يحسن أن تلعب وتتعلم قبل أن تغامر معي، فالمقهى يعج باللاعبين!

أجاب السيد نائل: لقد اخترتك، فأنت لاعب جيد، ولكني أتحداك وعلى رؤوس الأشهاد!

قال وحيد وهو ينظر إليه ببرود واضح: وأنا قبلت التحدي!

أما السيد نائل فقد ظهر عليه الارتياح، وكاد يعانقه، كأنما تحققت لديه أمنية من أمنيات العمر. ولكنه ما لبث أن قال: أرغب أن تتم اللعبة في آخر الليل، وعندما يفرغ المقهى من الزبائن، لكي تكون الجلسة أكثر هدوءاً وراحة.

وافق السيد وحيد على ذلك، بينما أعرب صديقنا أحمد - رحمه الله - عن اعتذاره عن الحضور، لأنه لا يستطيع السهر طويلاً.

وهكذا حين أطبق الليل، وفرغ المقهى من الزبائن، انتقلنا نحن الثلاثة إلى مائدة بمحاذاة السياج الذي يفصل المقهى عن النهر.

جلس هو ووحيد متقابلين إلى مائدة اللعب، واما أنا فجلست على بعد خطوتين أدخن آخر ما تبقى لي من السجائر.

أخرج السيد نائل علبة دومينو جديدة، تناولها وحيد متفحصاً إياها، قطعة قطعة، وفجأة قال السيد نائل: - لقد نسينا الرهان -. ثم التفت إلى النهر وقال: هل ترى النهر يا سيد وحيد؟ أنه في ذروة الفيضان، ولا يخلو من خطورة، ولكن ما العمل؟ إنني أحب المغامرة! - ضحك ثم قال: أنت حر تماماً يا سيد وحيد، ويمكنك أن تنسحب من اللعبة، ذلك أن شرطي الوحيد خطر، ولكنه في منتهى الروعة.. أن من يخسر اللعبة عليه أن يرمي نفسه في النهر بكامل ملابسه، وسيكون المنظر رائعاً حقاً.

- يا له من مزاح ثقيل! - قلت لنفسي. أما السيد وحيد فقد وافق ضاحكاً. قال: أنا لا أفكر في الخسارة، وإذا خسرت فإن ملابسي ليست أنيقة على اية حال!

وهكذا بدأت اللعبة...

ولا اكتمكم أنني راقبت بدايتها، ولكني لم ألبث أن أزحت الكرسي الذي أجلس عليه، وأنصرفت إلى منظر النهر الذي تكشفه أضواء المقهى الشاحبة.

كان النهر يدوّم ويسرع تحت اقدامنا، وكان صوت الماء يرتفع إلى رأسي، بينما كانت أمواج المياه تدور وتلتف، وتكاد تصل إلى الموائد. واما قطع - الدومينو - فقد كانت تتساقط مع أصوات المياه. شعرت بدوار في رأسي يجتاحني، فأمسكت رأسي بيدي، ناظراً بعينين نصف مغمضتين إلى النهر وامتداداته التي تغيب في الظلام الثقيل. وبعد فترة ليست بطويلة، طرق سمعي سقوط شيء ثقيل في النهر، مثل حجر كبير، التفت إلى مصدر الصوت، فرأيت السيد نائل يحدق إلى أسفل السياج. كانت مصابيح المقهى الخافتة تلقي على الماء ضوءها الشاحب، ليظهر لنا رأس السيد وحيد في الماء الغريني الثقيل، يظهر ثم يختفي ويبتعد، ثم تدفعه المياه إلى نهايات لا ترى.

عقدت الدهشة لساني، وتشبثت بالسياج الحديدي كي لا أسقط، ثم التفت إلى السيد نائل أسأله عما حدث.

أخذ السيد نائل بيدي وأجلسني، ثم قدم لي سيجارة. وبهدوء غريب قال وهو ينظر إلى تيارات المياه المتدافعة: - لقد خسر السيد وحيد اللعبة.

وقبل أن يقفز إلى النهر سألني عما إذا كنت استطيع أن امنحه فرصة ليلعب معي اليوم أو غداً لعبة أخرى أكثر ذكاء كالبوكر أو الشطرنج، فرفضت ذلك وقلت له: على المرء أن يتقن لعبة واحدة حتى لو كانت سخيفة.

وفجأة قال لي السيد نائل: - لماذا تنظر إلي أنت بحقد؟ الم يكن هذا هو الرهان؟ الم يوافق عليه؟ ألم تكن حاضراً وشاهداً حين بدأت اللعبة وانتهت؟

سماء صغيرة

حامد الراوي

تمد الدقائق اعناقها للزوال
ويهترىء الوقت
- فلنفترق
❖اصابعنا لا تزال
تحاول ان تجمع البحر بالبحر
والرمل بالرمل
والقلب بالطعنة المقبلة
- تعبت من الأسئلة
تعبت من اليتم . ذاك الرصيف
أخي
... وتلك الظهيرة أختي
تعبت من الجنة المهملة
❖ بوسعك ان تستريح
- بوسعي
بوسع السماء الصغيرة ان
تستدير اليا
لتمنحني نجمتين
اعلق احداهما قرب صورة جدي
وكان حصانا شقيا
واترك للنجمة الثانية
... مكانا تنام عليه
❖ تعبت - اذن - ؟
- بل نصبت فخاخي ثلاثين حولا
ومر القطا ... فانتبهت ..
وكانت فخاخي معي
وكانت طعومي معي
ولكن سرب الحمام امحى...
فانكسرت
وحين التفت
❖ وجدت يدي في يديك
اعيني الجنون على زرع راسي
لديك
تطيل الدقائق انفاسها
فيطول انشغالي بعينيك
- ماذا لديك
- بقية عطر
ومطحنة للنعاس الثقيل
وهذا الهواء المراوغ ... هذا الهوى
وكل المرايا سواء
وماذا لديك
- بقية موتي معي ..
وذاكرة تستعيد المواويل ..
والقبل الخاويات
وكوز قديم
يضم رماد الحصان الذي كان
يصهل في
وكل المنافي سواء
❖ اتشرب
- اشرب حتى يصر الخواء
وتنفلت الارض من راحة الماء
... اشرب
حتى الامس دكة موتي
❖ وماذا ستبقي لصحوك ؟
- ابقي الصباح الذي خانني
- مذ رحلت -
وابقي العراق

سليمانية ٢٠٠١